# قصيدة النثر بين الإرباك الفكري والنزوع الثوري

أ.زينة بورويسة
جامعة قسنطينة
bzina43@gmail.com

تمهيد:

كان التمرد على النمط التقليدي القديم والرغبة في خوض عالم التجديد هاجسا قويا لدى المثقفين في الوطن العربي الذي تدفعه رغبة جامحة لمسايرة كل ما يجدّ في الحياة الثقافية، خاصة بعد الجمود الفكري والإبداعي الذي عاشه العربي طيلة قرون خضع فيها لفتح تركي جائر لم يخرج إلا بعد أن ترك مكانه استدمارا غربيا نسف بطريقة منظمة الإرث الحضاري الشرقي عن آخره، ليعيش العربي مع بداية القرن العشرين صدمة حضارية بعد انفتاحه على حضارة الغرب.

وعرفت البلاد العربية حركة تمردية مست كل أنماط حياتها، بها في ذلك الأنماط الأدبية الممارسة التي كانت تحيط عمود الشعر بهالة من التقديس مؤمنة مطلق الإيمان أنه قدر محتوم، وأنه ديوان العرب الذي يمثل النموذج الجمالي المكتمل. وتوالت الحركات التمردية، وذاع صيتها عاليا باستهجان القصيدة البيتية، والتي تعالت معها دعاوي التجديد والرغبة في خرق السائد، فرفع شعار الخرق عاليا مع القصيدة الجديدة التي فتحت باب الإبداع ، وعمقت هوة القبول والرفض، فمن تطليق قيد العمود الذي عرفت به القصيدة، إلى تطور في المضمون, نزوعا إلى التجريب المستمر, والمغامرة الإبداعية المتجددة التي ولدت كائنا جديدا عرف بشعر التفعيلة أو الشعر الحر. ولم تكد هذه الأخيرة تعطي شكلا لبنيتها الإيقاعية والدلالية التي سعت إلى تخليص الشعر من قيود النمطية والتقليدية حتى ظهرت قصيدة النثر التي صدقت بها دعوات أدونيس الذي ينادي بخرق الممكن ، وخلق اللاممكن.

ورغم أن التجديد في القصيدة العربية كان حتما محتوما، واستجابة طبيعية لمتطلبات البنية الاجتماعية والثقافية للفرد العربي ، إلا أنه كان متأخرا ومحتشم الخطوات مقارنة مع العالم الغربي الذي سبقنا إلى قصيدة النثر

وكل ما ينادي بالتخلص من قيود الأوزان والقوافي. ولعل أهم ما أخر استجابة الشعر العربي إلى ثورة التجديد هو:

إضفاء نوع من القداسة على الشعر لارتباطه الوثيق بلغة القرآن.

-تعاظم العاطفة التاريخية اتجاه الشعر باعتباره ديوان العرب.

-حالة الخمود الشعري التي أعقبت العصر العثماني كانت تتطلب عملية إحياء الشعر بالأساس، أكثر مما تتطلب تجديده.[1]

اتجه الشاعر العربي إلى قصيدة النثر بعد أن وجد في البيت القديم سجنا يضيق عليه فضاءات الكتابة الحرة التي تتوق إلى الانعتاق والتحرر، فأشبعت قصيدة النثر في مقابل ذلك رغبته في الخروج إلى شكل شعري أكثر حرية من حدود البيت وسلطانه، وهنا تكمن أهمية هذه الكتابة الجديدة التي تؤجج الحيوية داخل البناء النصي بعد أن خمدت حرارة البيت القديم، وهو ما ذهب إليه محمد بنيس حين قال أن : "الشعراء المعاصرين اتجهوا نحو القصيدة العربية ليؤسسوا بناء حرا، ولتستطيع الذات المرور في اللغة من حواجز قبلية قسرية"[2]، وهذا التحرر في القصيدة ما هو في الحقيقة إلا انعكاس للفكر التحرري الذي تشبع به الشاعر العربي في نظرته إلى الحياة، وصورة صريحة للثورات الثقافية والسياسية التي بها نفض الإنسان الطموح غبار الماضي، ونزع الجلد الذي ظل يختبئ وراء نتانته طامسا ريحه العطر الفواح المنبعث من الباطن البشري المفطور على حب الجمال، وهذا ما نراه بوضوح في تعليق نزار قباني على ديوانه ( مئة رسالة حب ) الذي هو قصائد نثرية:" ...و من خلال تعاملي مع الكلمات، وتأملي للإمكانيات الموسيقية غير المحدودة المخبئة تحت جلد المفردات، ولألوف الإيقاعات المحتملة التي يمكن أن يفجرها الكاتب من تربة اللغة وطبقاتها السفلية، تكشف لي أن الخط الصارم الذي تعودنا أن نرسمه بين الشعر والنثر هو خط وهمي، وأن قصيدة النثر التي تبرأنا منها ذات يوم، وأسقطنا حقوقها المدنية واعتبرناها طفلا مجهول النسب... قد استرجعت شرعيتها، وجواز سفرها، وأصبحت عضوا أساسيا في نادي الشعر"[3].

وأهم ما قدمته قصيدة النثر للشاعر هو قيامها على مبدأ التعددية في الشكل والتأويل. فهي تضعنا أمام احتمالات لا تنتهي من الحرية وتوفر مئات الخيارات، فلا نعتقد أن شاعرا يضيق بممارسة حريته وتبعية ذاته الكاتبة لغواية مجهولها ومساراته السرية.[4]

و بالموازاة مع هذه الحرية التي ارتمت قصيدة النثر في أحضانها تتبادر إلى الذهن العربي جملة من التساؤلات: هل تعتبر قصيدة النثر تطورا حتميا في الشعرية العربية؟ أم هي مجرد الميل حيث يميل الإبداع الغربي؟ وهل استطاع المنادون العرب بقصيدة النثر أن يقدموا لها خصوصية إبداعية تجعلنا نقول بوجود قصيدة نثر عربية؟ وكيف صاغ هؤلاء العلاقة بين قصيدتهم النثرية وعمود الشعر ، بالقطيعة الهدامة؟ أم بالهدم البنّاء الذي يحافظ على جذور الشعرية العربية؟.

و في الجزائر ،كأنموذج، كيف تعامل المبدعون مع قصيدة النثر؟ وهل استطاعت التجربة الإبداعية لشاعرها عبد الحميد شكيل أن تترجم تجربتها السياسية؟

## 1-الصراع بين قصيدة النثر والنظام العمودي: صراع فهم وتجديد؟ أم صراع قطيعة؟

أحاط العرب شعرهم منذ القديم بهالة من التقديس بدّدت ككل محاولات التجديد التي تربصت به وأسقطتها أمام ثابت: الوزن والقافية، وأمام مفهوم الشعر الذي تحنط في جملة" قول موزون مقفى يدل على معنى". إلا أن رياح التغيير التي هبت في العصر الحديث كانت قوية إلى حد كسرت فيه مبادئ الموروث الشعري القديم، وحملت رؤى حداثية كان السبب في ظهورها:

-الجهد العربي الساعي إلى التجديد الواعي.

-الاحتكاك بالإبداع الغربي.

وقد تبنى حركات التجديد في الوطن العربي جملة من المبدعين المؤمنين بمشروعية التجديد، وعلى رأسهم: أدونيس، ويوسف الخال، ومحمد الماغوط، أنس الحاج ...الذين شكلوا "مجلة شعر" التي تعتبر حقلا نشطا احتضن التجارب الشعرية في لبنان، وأخذت على عاتقها إشكالية مستقبل الشعر العربي، لتخلق المجلة بذلك جوا فكريا مشحونا بالإبداع تميز عن كل الأجواء التي سبقتها في الظهور. وقد اهتدت " مجلة شعر" إلى إطلاق تسمية" قصيدة النثر" بعد اكتشاف أدونيس كتابا فرنسيا عنوانه " قصيدة النثر من بودلير إلى يومنا " ليطلق هذه التسمية من خلال مقاله " في قصيدة النثر" الذي نشر في مجلة شعر (1960م)... ولم يكتف بذلك فقد نشر قصيدة نثر بعنوان " مرثية القرن الأول" في العدد من المجلة.[5]

وبإطلاقه لقصيدة النثر حدث جدال وفوضى فكرية، بين مؤيد ومعارض، وكان أنس الحاج أكثر الجميع حماسا لقصيدة النثر، حيث استمات في الدفاع عنها[6]، وقد نظّر لهذا المولود الشعري الجديد من خلال مقدمة ديوانه الشعري" لن"، مؤكدا إن الشعر والشاعران لا يخضعان للوزن والنظم.

وكثر يومها الجدال حول هذا المولود الذي اعتبره المعارضون غير شرعي، منسلخ الهوية عن أبيه، والواضح أن نقطة الاختلاف ومثار الجدل تتعلق بأمرين أساسيين:

*الربط الدخيل على الذوق العربي الذي يصل قطبين متناقضين هما الشعر والنثر. فقصيدة النثر تقوم على اتحاد ثنائيات متضادة، يرتبط كل طرف فيها بإشارة دالة تختلف عن الإشارة والدلالة الأخرى، فكيف يلتقي النقيضان المحملان برصيد مقدس في ذاكرة الإدراك الجمالي وحدود التلقي، كيف يجتمع الشعر والنثر في رابطة واحدة أو خلوة غير شرعية وتعالق متنافر أو يبدو كذلك، قصيدة/ نثر[7].

و أمام هذا الجمع المتناقض كان من الطبيعي أن تنشأ فجوة كبيرة بين قصيدة النثر ونقاد الشعر ومتلقيه، ولا سيما وأن الذاكرة العربية ظلت لقرون رهينة عمود الشعر: تبحث في النظام، وتحاكم الشعر بالوزن والقافية. وهو ما حذى بنازك الملائمة ( وهي صاحبة مشروع الشعر الحر ) تطعن في هذه التسمية نافية عن النثر أي قيمة شعرية ، فعندها " للنثر قيمته الذاتية التي تتميز عن قيمة الشعر، ولا يغني نثر عن شعر، ولا شعر عن نثر ، لكل حقيقته ومعناه ومكانه، فلماذا جاء الناثر المعاصر ليزدري النثر ويحاول رفعه بتسميته شعرا"[8].

وحاول أدونيس بكثير من الاجتهاد أن يثبت روح الشعر في قصيدة النثر من خلال تعليقه على شعراء قصيدة النثر مشيرا إلى أن هؤلاء لا يؤكدون على الشعر بقدر ما يؤكدون على الأداة. النثر، كالوزن، أداة، ولا يتحقق استخدامه بذاته، الشعر[9].

*أسقط رواد قصيدة النثر عمود الشعر المقدس في الفكر العربي ، القائم على الوزن والقافية، إيمانا منهم بـ " أن تحديد الشعر بالوزن تحديد خارجي سطحي، قد يناقض الشعر، إنه تحديد للنظم لا للشعر. فليس كل كلام موزون شعر بالضرورة، وليس كل نثر خاليا بالضرورة من الشعر؟. إن (قصيدة النثر) يمكن بالمقابل ألا تكون شعرا ولكن مهما تخلص الشعر من القيود الشكلية

والأوزان ، ومهما حفل النثر بخصائص شعرية، تبقى هناك فروق أساسية بين الشعر والنثر...، ويواصل أدونيس كلامه محددا الفرق بين الشعر والنثر قائلا: " إن الفرق بين الشعر والنثر ليس في الوزن، بل في طرقة استعمال اللغة. النثر يستخدم النظام العادي للغة، أي يستخدم الكلمة لما وضعت له أصلا. أما الشعر فيغتصب أو يفجر هذا النظام، أي أنه يحيد بالكلمات عما وضعت له أصلا"[10].

و بهذا يربط أدونيس قصيدة النثر بالشعرية، فالشعر عنده ليس له قوالب جاهزة ومستقرة لأنه انعكاس للحياة التي لا تعرف استقرارا ولا تدع إلا حركته، وأن غاب الإيقاع الخارجي المنتظم، فهناك إيقاع داخلي فوضوي لا يسكن، مصورا الحالة النفسية التي كتبت فيها قصيدة النثر، وهذا ما قاد البعض إلى القول بإيقاع الحالة.

و يبدو من خلال كلام أدونيس أنه وقع في خطأ المقارنة والاصطلاح، حين يقارن بين ( القصيدة) و(شاعرية النثر) لأن المقارنة خاطئة من أساسها، لهذا يلجأ أدونيس إلى تحوير مصطلح ( القصيدة) العربية إلى مصطلح (قصيدة الوزن). وهو بهذا، حين يقتنص الوزن ويجعله صفة جوهرية للقصيدة، يحذف كل ما قاله النقاد العرب القدامى والجدد من أن تعريف القصيدة لا يرتبط بالوزن وحده، فقد اشترطوا ( العاطفة، الخيال، مجازية اللغة الشعرية) أيضا[11].

**بين القطيعة والتجديد:**

حاول أدونيس في مواقف كثيرة أن يؤكد أن قصيدة النثر تقوم على جذور الشعرية العربية ولا تنسفها، منطلقا من فكرة أن قصيدة النثر الغربية نشأت من التراث الغربي. فالوصول إذن إلى قصيدة نثر عربية يفرض العودة إلى التراث العربي، يقول:" ولعلنا نعرف جميعا أن قصيدة النثر.. إنما هي كنوع أدبي شعري، نتيجة لتطور تعبيري في الكتابة الأدبية الأمريكية الأوروبية. ولهذا فإن كتابة قصيدة نثر عربية أصلية يفترض، بل يحتم، الانطلاق من فهم التراث العربي الكتابي، واستيعابه بشكل عميق شامل، ويحتم من ثمة تحديد النظرة إليه، وتأصيله في أعماق خبرتنا الكتابية اللغوية، وفي ثقافتنا الحاضرة"[12].

فأدونيس يعترف إذن بعبقرية التراث الشعري العربي ويدعو إلى الرجوع إليه لاستيعابه وتأصيله في الثقافة الحاضرة، لكنه رجوع يهدف إلى تحقيق كتابة

الخلق والإبداع لاكتابة الاستعادة والاجترار، فالعودة إلى التراث إذن هي عودة هدم وإعادة بناء، توظف بفعالية ثنائية التجديد/ المحافظة.

لكن قصيدة النثر التي هدمت القصيدة العربية وجدت نفسها في مأزق إبداعي بعدما عجزت عن الإتيان بالبديل. لهذا راح روادها ينقلون القوانين الجاهزة التي أخذوها عن سوزان بيرنارد في تنظيرها لقصيدة النثر الفرنسية متناسين أن هذه القوانين الجاهزة تخص لغة غير لغتهم، وثقافة غير ثقافتهم. ولأنهم غالوا في التجريب والتمرد على كل قوانين الشعر العربي جعلهم يقعون فيما يسمى "وهم الشكل الأسمى" و"وهم الإيقاع الداخلي"،فلا مكّنها الجمع بين الشعر والنثر من الحصول على الشكل الذي حاولوا الوصول إليه، ولا مكّنها استبعاد الإيقاع الخليلي من تعويضه بنمط موسيقي ما يحفظ لقصيدة النثر ماء وجهها أمام انتسابها للشعر.

أما أنس الحاج فيبدو من خلال آرائه وتجربته الشعرية أنه تشبّع بثقافة التمرد، التي قادته إلى خراج ديوانه(( لن )) الذي يحمل عنوانه دلالة اللانظام واللاقانون في قصيدة النثر، ويعتبر ديوانه هذا"علامة فارقة في مشروع قصيدة النثر العربية وفي منجزها الإبداعي، من جهة ما تحمله في مقدمتها النظرية ونصوصها الشعرية على السواء من نفي جازم للثوابت التي قام عليها النص الشعري العربي في رواسخه القديمة لغة وإيقاعا وتصويرا". بل ذهب أنس الحاج إلى أبعد من التمرد على القديم ، فنادى باللاجديد، بمعنى أنه رفض إعادة صياغة قوانين جديدة تحكم قصيدة النثر لأنها من شأنها أن تعيدها إلى سلطة القانون من جديد، فراح يخالف كل القوانين حتى تلك التي صدرت منه، فوجدناه يقنن لقصيدة النثر بالقصر في مقدمة ديوانه(( لن)) ، ثم عاد ليكتب قصيدة نثر طويلة في نفس الديوان. وهو إصرار له على عدم إلصاق قصيدة النثر بايدولوجيا معين، رغم أن هناك من يعتبر " قصيدة النثر نفسها تعبير عن ايدولوجيا، مثلما كانت قصيدة التفعيلة تعبير عن إيديولوجيا في النص، أو بقائها على أطرا النص. وعندما كان شعراء تجمع شعر وكتاب قصيدة النثر يعلنون رفضهم للتيار المحافظ فهم يحاولون إخفاء ايديولجيتهم مع تضخيم إيديولوجية الأخر القومي اليساري"[13].

ويبرر أنس الحاج مناداته بهدم التراث الشعري العربي وإحداث القطيعة مع الذوق الفني القديم في قصيدة النثر بكون هذه الأخيرة شعر، والشعر لا يقاس بأشكال هندسية أو حسابات فيزيائية، وإنما الحكم الوحيد هو قوة

الإيصال والتأثير في القارئ، بل يصل به طموح التمرد إلى إنكار وجود أي صفة لقصيدة النثر سوى صفة هي ( لا لمفهوم الشعر)، فالشعر فوق الايدولوجيا وفوق القانون وفوق الرتابة.

وفي الوقت الذي تراجع فيه أدونيس واعترف بأهمية الرجوع إلى التراث العربي لتحقيق ثنائية الفهم/التجديد، ظل أنس الحاج أكثر أفراد مجلة شعر تطرفا ومغالاة في تحقيق القطيعة التي قامت في الأساس على:

ـ تجاوز التعريفات الكلاسيكيّة للزمان والمكان.

ـ قتل الأب، بمعنى الثورة على السائد/ المرجع.

ـ إعلاء قيمة اللغة . بمعنى جعل اللغة هيّ النصّ،والنصّ هو اللغة.

فشملت بذلك القطيعة: الوزن والموضوع والأسلوب واعتبرت كلها أدوات بالية، من منطلق أن قصيدة النثر هي البديل لكل إبداع شعري.

**خلاصة**

ولنا من خلال هذا العرض الموجز أن نقول أن خطأ التقليد الذي سارت عليه مجلة شعر هو ما قاد إلى الصراع حول إشكالية قصيدة نثر: هل هي قصيدة تحترم جذور الشعرية العربية؟ وبالتالي تجد لها قارئا في الوطن العربي ومكانا في الساحة الثقافية؟ أم هي مجرد محاولات لنقل تجربة غربية ؟ وبالتالي تحدث قطيعة مع التراث العربي وتدخل روادها في متاهات لا متناهية، أعجزتهم في الأخير عن تقديم بصمة إبداعية عربية في قصيدة النثر.

إنه من حق كل مبدع عربي أن يقدم شكلا إبداعيا معينا، لأن ممارسة اللغة حق للجميع، ولا يحق لأي كان أن يقول هذا إبداع صحيح وهذا إبداع خاطئ. لكن الإبداع لا يقتضي الخلط والتهجين، بل يقتضي التأطير المنظم والفهم العميق.

## 2-قصيدة النثر العربية نتاج: الظرف، الحاجة، الوعي.

شهد العالم العربي تحولا فكريا صارخا مع مطلع القرن العشرين، تزامنا مع النهضة العربية التي شملت كل المناحي: السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية. وكانت هذه النهضة قد جاءت نتيجة سوء السياسة الحاكمة للعالم العربي، والتي انعكست بصورة واضحة على الأدب: شعرا ونثرا. وظهرت في أثناء ذلك جملة من الحركات الأدبية التي كانت تسعى إلى إنعاش الصورة الأدبية

في البلاد العربية، أهمها حركة الإحياء، الرابطة القلمية، العصبة الأندلسية، مدرسة المهجر، جماعة الديوان..

ولأن هذه الحركات ، في معظمها، نشأت في الغرب فقد كانت نشاطاتها متأثرة بالأدب الغربي في كثير من المواضع. ولم يفق العالم العربي إلا وقد اجتاحت الأنماط الأدبية الغربية ( كجزء من الاجتياح الفكري ) عقول أدبائه. فمن تجديد موضوعات الشعر، إلى التخلي عن القافية والمناداة بالشعر الحر وشعر التفعيلة، إلى الصدمة الكبرى: قصيدة النثر المتخلية عن الوزن والقافية.

فهل جاءت قصيدة النثر كتصور إبداعي وتطور فكري ناتج عن تجربة عربية معينة؟ أم هي مجرد نتاج صدمة حضارية عاشها العربي عند احتكاكه بالغرب، فلم يجد بديلا للتقليد؟

بالعودة إلى الظروف الفكرية التي تولدت عنها التغيرات الحديثة في الأدب العربي، سنجد أنها تولدت عن مجموعة من المعطيات:

-احتكاك الفرد العربي بالغرب واصطدامه بهوة حضارية جعلته ينبهر بالحضارة الغربية ويعمل على نقلها إلى عالمه الشرقي، ويعود هذا الاحتكاك إلى البعثات العلمية (المتجهة من الشرق إلى الغرب) والرحلات الاستشراقية (المتجهة من الغرب إلى الشرق ).

-الترجمة التي من خلالها تم نقل العديد من الأعمال الأدبية الغربية التي وجد فيها العربي حرية ومسلحة رحبة للإبداع مقارنة بقيود الوزن والقافية المفروضة في الإبداع العربي.

-الصحافة التي صورت الواقع العربي وفتحت المجال أمام النخبة المفكرة لتنقل أفكارها إلى أفراد الأمة.

-تخطي التعليم للكتاتيب وانفتاحه على المدارس والمعاهد والجامعات.

-ظهور المعاجم وانتشار الكتب مما سهل الاطلاع على الآداب العربية والغربية.

ولقد شمل التطور الأدبي عدة أنماط إبداعية: كدخول فن الرواية، وفن المسرح، والقصة القصيرة، والشعر الحر، وقصيدة النثر. وما هذا التطور إلا انعكاس للتطور الاجتماعي، فالأدب مؤسسة اجتماعية أداتها اللغة التي هي نفسها من خلق المجتمع[14].

فالشعر ديوان العرب، كان يصور في القديم الحياة الاجتماعية أصدق تصوير، بل إن الإنسان المعاصر لم يتعرف إلى الحياة الجاهلية إلا من ثلاثة أمور:

-الشعر الجاهلي الذي صور كل مناحي الحياة.
-القران الكريم الذي ذكر بعض ملامح الحياة الجاهلية كالكرم، وكثرة الحروب، والتبرج، ووأد البنات...
-تدوينات قليلة لبعض روايات المخضرمين.

فالشعر، من الجاهلية وحتى الآن، من صنع المجتمع، ويعبر عن خلفياته الثقافية والدينية. فإن كان الشاعر القديم يعبر عن ولائه لقبيلته وشوقه لمحبوبته وقهره لأعدائه بأشعاره الطويلة وتغنيه بالأوزان والقوافي ، فإن الشاعر المعاصر، وأقصد هنا شعراء قصيدة النثر، لا يمتلك نفسا طويلا وهو يحتضر ويئن تحت الغش السياسي والرداءة الفكرية، إنه يعبر عن رفضه لسلطة القانون وقانون السلطة بخرق مقدسات الشعر وضوابط الوزن والإيقاع، ومن أين يجئ الإيقاع المضبوط، القياسي، المتواصل بلا اختلال، فيما الكون يعجّ بالفوضى، والروح بالتضارب، أمن خارج الكون؟ أم من خارج الروح؟[15] وأي شعر هذا الذي لا ينبثق من الروح.

ومن هنا يأتي إيماننا بأن للأدب فضيلة تخصه وهي التسجيل المخلص لسمات العصر والحفاظ على أفضل تمثيل للأخلاق وأفضل تعبير عنها، مثلما يقول المؤرخ الانجليزي للشعر توماس وارثون.

فالشاعر فرد ينخرط في قضايا أمته الفكرية منها والسياسية.. ليخلق للأدب واقعيته. والشعر في العصر الحديث ليس وظيفته التطريب والانتشاء، في وقت الفرد فيه حزين، والشارع مدمر، والرغبات مكبلة. بل الشعر كما يقول نزار قباني: الشعر هو الناس، هو الشارع.

إن الحداثة ، التي ولدت قصيدة النثر، ليست إلا ثورة نبعت من داخل الفرد العربي ليعبر بها عن ثورة المجتمع والفن والفكر وهذا ما يؤكده أنس الحاج: " الشعر هو الذات أيضا ما حوله وخارجها. ولكن الأحداث الخارجية يمكن أن تستحيل جزءا من الذات. عندئذ يعبر عنها الشعر. ولكن غالبا بطريقة غير مباشرة، ويمكن أن لا تعبر عنها أبدا. شرط الشعر أن ينبعث من الذات." [16]

وبالعودة إلى المشهد السياسي الستيني والسبعيني في الوطن العربي سنرصد أحداثا كثيرة للفشل الاستراتيجي والتصدع القومي والزيف الحضاري الذي كان كافيا ليخرج جيلا عربيا واعيا مدركا من جهة، متخبطا في الشرخ الحاصل بين طموحه وواقعه من جهة أخري. ولم يعد هذا الجيل

قادرا على تقبل كل ما هو مطروح منظّر له، بل أصبح يناقش المطروح ويتخطى النظرية الصماء بوضع نظريات جمالية قادته إلى خلق أنماط أدبية قادرة على احتواء تجربته، وإخراجه من واقعه الهش الذي يحمل الثبات في صورته الخارجية، والفوضى والانهيار في صورته الباطنية.

لقد ظهرت قصيدة النثر في فترة تغيّر فيها الذوق والمتذوق، والفكر والمفكر، وزاد فيها الوعي بما هو داخلي وخارجي، واشتدت الحاجة للتعبير عن هذا الوعي الذي هو في الحقيقة نتاج ظروف سياسية وتاريخية وثقافية مرّ بها الفرد العربي، فأعطى لنفسه فسحة أكبر في ممارسة اللغة بطرقته الخاصة التي تستوعب حاجته وطاقته وتجربته.

إن قصيدة النثر كشكل من أشكال التحولات الأدبية ما هي إلا نتيجة لتحولات العصر وظروف كل مرحلة تاريخية، فهناك ارتباط وثيق بين الحياة الثقافية والحياة الاجتماعية، كما أن حركة الحداثة بطبيعتها تسعى دوما للتغيير وهي تجاوز للثابت، فالثبات يعني الموت، لذا فقد كان وعي الشعراء بالتجديد مبكرا[17].

**3-قصيدة النثر في الجزائر: (تجربة عبد الحميد شكيل الشعرية).**

عبد الحميد شكيل مبدع جزائري استطاع أن يفتك لقصائده النثرية مكانا متناهيا في الساحة الشعرية الجزائرية، والشاعر الوحيد الذي يكتب ورفض أن يطفئ صوته سنوات الإرهاب والتخريب والفوضى، من مبدأ أن ما يدفعه إلى الكتابة هو ما يدفعه إلى الحياة. (و لأن المسافة الورقية لا تسمح لي ببث دراستي التي أجريتها عن تجربة عبد الحميد شكيل سأتجه إلى الاختصار وبث النتائج مباشرة).

تميزت التجربة الشعرية للمبدع عبد الحميد شكيل بجملة من الخصائص:

- أوضح ما يسم القصيدة النثرية عند عبد الحميد شكيل الشعرية نزوعها الدائم إلى التجريب والمغامرة الفنية المستمرة.
- يعتمد شكيل في كتابته لقصيدة النثر على اللعب بالكلمات والرموز والعلامات، ليكون منها أدوات للتجاوز وخلخلة بنية الخطاب الشعري ليصل للبعد الأخير المتمثل في جمالية القصيدة.
- القصيدة النثرية تحاور عنده الشعر والسرد وتبحث عن الذات، والوطن، والحب في مختلف الفنون والعلوم والمعارف،

تستوحي مدادها من الصوفية والفلسفة والعقيدة والطبيعة. يتعامل معها شكيل تعاملا فنيا وفكريا في لعبة شعرية تكسر العلاقات والقواعد، ليؤسس بذلك خصائص القصيدة النثرية الشكيلية التي منها:

- ✓ مأساوية المشهد التعبيري.
- ✓ صوفية العوالم.
- ✓ تجريدية الصورة وغموض المعنى.
- ✓ نثرية الإيقاع.

❖ قدرة الشاعر وقصيدته على إرباك القارئ وإلحاق القلق به، وجعله يعيش بين المتاهة واليقين وتحول الأفكار وفاجعة الصدمة المعرفية.

**قصيدة النثر الشكيلية وسيلة لتوصيف الرعب السياسي:**

عبد الحميد شكيل، كما أنا، وكما أنت، كما الشجر والحجر والوادي وأسراب الطيور وأشجار الزيتون، غرق في حلم جزائر الشهداء والحرية والبناء والمساواة وكل ما هم جميل من مبادئ ثورة نوفمبر، ثم استفاق من حلمه على جزائر الإقصاء السياسي والتهميش الفكري والدكتاتورية والتبعية لاستعمار خرج ولم يخرج، استفاق على جزائر الدم والتقتيل فلم يصمت كما صمت الخائفون من الموت، لأن من أراد قتل شكيل فليكسر قلمه. وجاءت قصائده تنضح بما في وطنه من الخراب وما في نفسه من الأمل الممزوج بالألم، كمجموعته الشعرية ((تحولات فاجعة الماء)) التي يقول عنها: "تومض بالكثير من مفردات الدم والموت. لأنها كتبت في خضم تلك التحولات المأساوية التي كادت أن تعصف بالجزائر ومنجزاتها... مجموعتي هي توصيف مرعب ودال على حالة الدمار والموت الذي عرفته الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، بل أزعم بأن القصيدة الجزائرية كانت تشير وتحذر من الزلزال الكبير الذي هز الأركان"[18].

يفتتح شكيل مجموعته((تحولات فاجعة الماء)) بقصيدة ((الشجر المقاوم)) في تحد جميل يرفعه في وجه الوجع، ويختمها بقصيدة (( الزهو يليق ببونة)) في تأكيد مزين بالأمل الجميل أن بونة (مدينة عنابة) ولدت من رحم السعادة وليس بيد المجرمين، وإن طال أمدها، أن تغير سنة الله في خلقه،

فتمسح عنها زهوها أو تعكر صفو عشاقها أو تخرس أصوات الكعب العالي لنساء يعبرن الشارع بكثير من الحبور. يقول:

**وقال لبونة: دمي، وروحي، سر تواريخي، بهجة**
**منفاي الذي أرتديه مرحلة، وأشرعه نشوة دموية**
**تشتهيها الكعاب،**
**فهلا أوردتني منابع الماء؟**
**و هذبت سطوتك المستديمة،**
**و أعطيت بونة ما يليق بزهوها المشمخر.**
**قصيدة النثر الشكيلية تعلن تمردها على اللغة:**

يمتاز عبد الحميد شكيل في كتاباته برؤيا واضحة المعالم عن الإبداع فهو " يرفض القوالب الجاهزة ولا يستحسن المقاييس والقواعد التي تخنق الكتابة لذلك نجده يهرب من كل نمطية ويكتب نصوصا تنزع نحو فضاءات الخرق الجمالي"[19].

وبطريقة إبداعية يفلت عبد الحميد شكيل من قيود النمطية الشعرية ويؤسس لقصيدته في العوالم الصوفية التي ترتفع عن عبثية العالم، فنجده " يراوغ اللغة ليلقي بآخر أنفاسه، يمارس آخر الحلول في اللغة حيث الجسد يتخذ مساحات واسعة من البنية النحوية والتركيبية، وهنا تصبح اللغة والعبارة شكلا من أشكال الفهم"[20]. ولعل هذا ما عبر عنه بالخروج من غبار اللغة في قصيدته النثرية(( تحولات محاق اللون)) من مجموعة مرايا الماء:

**لم أرها..**
**و لم أجد الماء الذي كنت أنتظر**
**و انخرطت في شهوة البكاء،**
**و دعوت الشجو، كيما يشاركني الفرح؟**
**لكنه نأى في رأد الفلاة..**
**و خرجت من غبار اللغة...**[21]

**خاتمة:**

قصيدة النثر، شئنا أم أبينا، جنس أدبي جديد فرض نفسه في الساحة الإبداعية، وفجّر موجة من الأسئلة والصدامات الفكرية بسبب ما حملته،

بجرأة كبيرة، من كسر لقيود الشعرية العربية التي رافقته زمنا طويلا. وهذا البحث على بساطته الفكرية والكمية يوقفنا أمام جملة من النتائج أهمها:

❖ اللغة ممارسة، والممارسة لا يجب أن تحدها حدود، أو تأسرها قيود. وعليه فمن حق كل ممارس لهذه اللغة أن يشكل نمطه الخاص متى استطاع إلى ذلك سبيلا. وبالمقابل ليس من حق أي كان أن يحكم على هذه الممارسة بالصحة والخطأ.

❖قصيدة النثر مولود ارتجالي، أخرجها من أخرجها إلى الوطن العربي دون تفكير معمق وتنظير مؤسس، مما سار بها إلى التقليد الذي سرعان ما ضعفت شوكته وذبلت زهرته، ليجد أصحابها أنفسهم أمام خطيئة إبداعية.

❖قصيدة النثر نص إبداعي وجد الكثير ضالتهم فيها، لما فيها من معطيات الحرية، التي جعلت منها مساحة تتسع لاحتواء الدفقة الشعورية على اختلاف معطياتها. وأصبحت ، وهي أداة تعبيرية في يد بعض المبدعين، نصا قادرا على أن يكون في مرحلة ما ديوان العرب، نظير قدرتها على نقل التجربة الفردية والجماعية للمبدع.

❖ما تعانيه قصيدة النثر ليس قضية رفض أو تأييد، وإنما قضية فهم واستيعاب، وبالتالي قضية: الاصطلاح، والتأسيس، والاحتواء، والتطبيق.

❖ قصيدة النثر عانت من صراع المنادين بها، فمنهم من أراد أن يؤسس لها على جذور الشعرية العربية من خلال الفهم العميق للتراث والانطلاق من هذا الفهم لبناء قصيدة النثر بتفعيل ثنائية الهدم وإعادة البناء. في الوقت الذي رأى البعض ضرورة تطبيق القطيعة المطلقة مع التراث تخوفا من الوقوع مجددا في الاجترار.

❖ ما عابه النقاد على رواد قصيدة النثر هو تخليهم عن الموروث الشعري وقوانينه دون القدرة على الإتيان بالبديل، ولعل ذلك يرجع في الأساس إلى عدم أصالة قصيدة النثر في الذوق العربي والاعتماد الكلي على استيراد مجهودات سوزان برنارد.

❖ مثلت قصيدة النثر قفزة نوعية في الفكر العربي الذي لم يتعود أن يمس قداسة القانون, أو يقول لا لما تفرضه عليه مختلف السلطات، ولعلها لعبت دورا لا ينكره أحد في زعزعة غول السلفية، وإعطاء قوة للفرد لكسر كل ما تفرضه الثنائية المتلازمة السلطة/ القانون.

❖ قد تحظى قصيدة النثر بالنجاح والشعبية إذا غيرت المصطلح وتخلت عن إصرارها الانتماء إلى الشعر، وأقترح في هذا المقام اعتماد ما أطلقه البعض : النصوص الإبداعية.

❖ كل من تناول ظروف ميلاد قصيدة النثر في العالم العربي خلص إلى أنها ليست تطور للشعرية العربية. لكن استقدامها لم يكن عبثيا ، وإنما خضع لظروف عربية معينة من اللازم الاعتراف بها، تتعلق في مجملها بتأخر عربي مواز لتطور غربي.

❖ مثلت تجربة الشاعر عبد الحميد شكيل فرادة في استثمار الحرية التي قدمتها قصيدة النثر في التعبير عن قضايا الفرد الجزائري، وفي مقدمتها رفض الفوضى السياسية التي تسبب فيها أصحاب المصالح الخاصة.

إحالات:

[1] عبد العزيز موافي: قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2004، ص: 107.

[2] الربعي بن سلامة: تطور البناء الفني في القصيدة العربية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2006، ص: 164.

[3] نقلا عن الرعي بن سلامة، تطور البناء في القصيدة العربية، ص: 118.

[4] علوي الهاشمي: فلسفة الإيقاع في الشعر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2006، ص: 116.

[5] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، أطروحة دكتوراه، قسنطينة، 2007، ص:15.

[6] جروة علاوة وهبي: التجريب في القصيدة العربية، ص: 12.

[7] عبد الناصر هلال: قصيدة النثر العربية، نادي الباحة الأدبي، المملكة السعودية، ط1، 2013، ص:127.

[8] نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1981، ص: 226.

[9] ايمان الناصر: قصيدة النثر العربية، التغاير والاختلاف، وزارة الثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين، ط1، 2007، ص: 75.

[10] عبد الناصر هلال: قصيدة النثر العربية، ص: 113.

[11] عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 2002، ص: 41.

[12] إيمان الناصر: قصيدة النثر العربية، ص: 75.

[13] عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص: 44.

[14]المنهج الاجتماعي في دراسة الأدب. موقع قلمي, www.9alami.com

[15] القول لرفعت سلامة، نقلا عن عبد الناصر هلال: قصيدة النثر العربية، ص: 9.

[16] عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص: 47.

[17]) أمال ذهنون: تحولات القصيدة العربية، مجلة المخبر جامعة بسكرة، ع5، مارس 2009.

[18] عبد الحميد شكيل، حوار أجراه معه عبد الرحمن تيبرماسين، مجلة عمان، ع 133، ماي 2006.

[19] عبد الحميد شكيل: رمزي التعبير وأفق التأويل، حاوره وليد بوعديلة، جريدة الأحرار، 17 أوت 2005.

[20] عبد الحميد شكيل لجريدة اليوم ،6 سبتمبر 2004.

[21] عبد الحميد شكيل: مرايا الماء، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 2005.